استمرار المقاومة الوطنية خلال القرن 19م:

ثورة المقراني و الشيخ الحداد 1871

مقدمة

إذا كانت فرنسا الإستعمارية قد تمكنت عسكريا من القضاء على مقاومتي أحمد باي و الأمير عبد القادر و غيرهما من المقاومات المسلحة الوطنية خلال الأربعينيات و الخمسينيات القرن 19م، إلا أنها لم تنجح في النيل من روح المقاومة لدى الشعب الجزائري التي ظلت متأججة، و معبرة عن رفض الجزائريين الجماعي للاحتلال، و تمسكهم بهويتهم الوطنية.

و تعتبر ثورة المقراني 1871 من أشد هذه الثورات التي شكلت خطورة كبيرة على الوجود الاستعماري بالجزائر، سيما و أنها اندلعت في ظل ظروف محلية و دولية خاصة، فما علاقة ذلك بهذا الحدث، و ماهي تداعيات هذه الثورة على الإدارة الاستعمارية؟ و كيف واجهتها فرنسا؟ و ماهي انعكاساتها على مسار المقاومة الوطنية؟

1.ظروف و دو افع الثورة:

يمثل العاملان الوطني و الديني التحرري المحركان الرئيسيان لثورة المقراني و الشيخ الحداد 1871ضد النظام الكولونيالي بالجزائر، عكس ماروجت له الكتابات الاستعمارية حول الأسباب الشخصية التي دفعت بالمقراني و الإخوان الرحمانيين إلى تفجير الوضع في هذه السنة ، و هذا محاولة منها تشويه سمعته من جهة و إفراغ المقاومات الشعبية المسلحة من محتواه الوطني من جهة أخرى.

و من الموضوعية بمكان الإشارة إلى الظروف و الأسباب الأخرى التي ساعدت على قيام هذه الثورة، يمكن تلخيصها على النحو الأتي:

1-الأسباب السياسية:

-صدور مرسوم كريميو 24 أكتوبر 1870:الذي منح حقوق المواطنة (الجنسية الفرنسية) ليهود الجزائر لاستمالتهم إلى صف الإدارة الاستعمارية، بينما استمر الجزائريون فاقدين لكل الحقوق و تقديم كل الواجبات و هذا باعتبارهم أهالي، ضف إلى ذلك تأزم وضعهم المعيشي بشكل مريب.

- استبدال الحكم العسكري بالحكم المدني في الجزائر بعد سقوط الامبراطورية الفرنسية الثانية سنة 1870، الذي كان مكسبا كبيرا للمستوطنين، بحيث مكنهم من السيطرة على مقدرات الجزائر الاقتصادية و السياسية و استغلال الجزائريين و اهانتهم

-استهداف الإدارة الاستعمارية نفوذ أسرة المقراني، حيث سعت لتحطيمها و إهانة زعيمها الباشاغا محمد المقراني، كحاكم لمنطقة مجانة ،خلفا لوالده أحمد المقراني المتوفي سنة 1853(الذي منحته الإدارة الفرنسية لقب الخليفة على المنطقة برمتها سنة 1838)،حيث قامت الإدارة الاستعمارية بتجريد محمد المقراني من لقب الخليفة و منحته منصب"باشاغا" المحدود الصلاحيات، بل أخذ يتعرض للمضايقة و التهميش من قبل الضباط الفرنسيين ،و من ثمة تقليص نفوذه في المنطقة،الأمر الذي لم يتقبله المقراني الذي أصر على وضع حد لهذه الممارسات الاستعمارية المهينة لشخصه و عائلته مهما كلفه ذلك من ثمن.

2-الأسباب الاقتصادية و الاجتماعية:

-تأزم أوضاع الشعب الجزائري الإقتصادية و الاجتماعية و الصحية بسبب السياسة الاستعمارية المفروضة عليه و القائمة على التجويع و التفقير و التجهيل هذا من جهة،و بسبب انتشار الجفاف و الجراد(1866)،و الزلزال (1867)و الأمراض و الأوبئة (الكوليرا و التيفوئيد سنة 1867)، و المجاعة التي أهلكت مئات الآلاف من الجزائريين خلال منتصف الستينيات القرن 19م من جهة أخرى.

-اتساع رقعة النشاط التنصيري ،سيما أثناء انتشار المجاعة خلال سنتي 1867-1868،التي راح ضحيتها حوالي نصف مليون جزائري،و من جهة أخرى حاولت الكنيسة و على رأسها أسقف الجزائرالكاردينال لافيجري(1867-1892) استغلال هذا الظرف الرهيب لتنصير الجزائريين بوسائل اغرائية متعددة من مالية وغذائية و طبية و تعليمية...الخ

-مشكلة الديون التي اقترضها الشيخ المقراني من بنك الجزائر و أثرياء اليهود(مسرين و أبو قاية،و عبادي) و التي زادت عن نصف مليون فرنك،بهدف إعانة السكان ،سيما الفلاحين المتضررين من مجاعة 1868، ،مقابل تعهد ا مكماهون الحاكم العام للجزائر(1864—1870) للمقراني بتسديد ديونه في حالة عجز أصحابها عن الدفع،إلا أن السلطة الجديدة المحسوبة على الحكم المدني رفضت الاعتراف بذلك، و اضطر المقراني إلى رهن أملاكه للبنوك و اليهود بعدما وجد نفسه في ضائقة مالية.و اصبحت أملاكه مهددة بالحجز.

--استمرار الإدارة الاستعمارية في مصادرة أراضي الجزائريين و تمليكها للمهاجرين الأوروبيين تجسيدا للمشروع الاستيطاني ،و لتحقيق هذا الغرض تم تهجير حوالي4580 مهاجر أوروبي إلى

الجزائر قبيل اندلاع الثورة،و بفضل هذه السياسة ارتفع عدد الأوروبيين المهاجرين إلى حوالي 295 ألف شخص سنة 1870،و أنجز لهم حوالي 11 قرية استيطانية جديدة خلال هذه السنة.كما عانى الجزائريون في هذه الفترة من ضرائب مجحفة أثقلت كاهلهم و تسببت في تعميق معاناتهم.

-استهداف الهوية الوطنية بمحاربة القضاء الإسلامي و إجبار الجزائريين على التقاضي لدى المحاكم الفرنسية،إضافة إلى تدخلها السافر في كل صغيرة و كبيرة تخص الشؤون الدينية للجزائريين الأهالي،و إثارة التفرقة و الخلاف بين القبائل الجزائرية على غرار ما حدث بين الشيخ المقراني و أبناء عمومته أولاد عبد السلام

-3-ظروف محلية أخرى:التي تميزت باستمرار الانتفاضات و الثورات ضد الاحتلال،أبرزها ثورات بوشوشة(1863-1875)، و ناصر بن شهرة(1851-1884) بالجنوب الشرقي،و ثورة أولاد سيدي الشيخ(1864-1876) بالجنوب الغربي،و تمرد جنود الصبايحية الجزائريين خلال شهر جانفي 1871 ضد الإدارة الاستعمارية في العديد من مناطق الشرق الجزائري(الطارف،سوق أهراس..) حيث رفضوا الذهاب إلى فرنسا للدفاع عنها في خربها ضد بروسيا الالمانية

4-الظروف الخارجية المساعدة:

تمثلت أساسا في هزيمة فرنسا القاسية و المهينة في حرب السبعين(1870) أمام بروسيا الألمانية،حيث أسر إمبراطورها نابليون الثالث،و سقطت بذلك الإمبراطورية الفرنسية الثانية و أعلن عن قيام الجمهورية في الرابع سبتمبر من نفس السنة،و مع ذلك لم تستتب أوضاعها الداخلية الأمنية و السياسية،من خلال استمرار الحوادث الخطيرة التي شهدتها أبرزها حوادث كمون بباريس خلال منتصف مارس 1871،التي عبر من خلالها سكان العاصمة عن تخوفهم من عودة الملكية لفرنسا،و عدم رضاهم بهزيمة فرنسا في الحرب و استمرار تواجد القوات البروسية بالبلاد، لتتطور هذه الحوادث إلى ثورة دموية بعدما حاول الجند الفرنسي إخماد المتظاهرين بالقوة.شكلت هذه الظروف عاملا محفزا للمقراني و الرحمانيين لتفجير الثورة.

2.مراحل الثورة:

1.2.انطلاق الثورة و توسعها:

سبق للمقراني و أن قدم استقالته من منصبه((باشاغا)) مباشرة بعد الإعلان عن إلغاء الحكم العسكري و تعويضه بالحكم المدني في الجزائر،لكن السلطات الفرنسية رفضت استقالته،إلا أن المقراني أصر على موقفه،حيث تمكن في 9مارس 1871 من دفع الإدارة الاستعمارية إلى قبول استقالته،بعد ذلك شرع في الاتصال بزعماء القبائل والتحضير للثورة،و عقد اجتماعات هامة

ما بين 10 و15 مارس بهدف الاستعداد للثورة،وكان أهمها اجتماع 14 مارس الذي تقرر فيه إعلان الثورة يوم 16 مارس 1871.

تمكن المقراني خلال هذا التاريخ من الزحف على مدينة برج بوعريرج على رأس جيش يتكون من حوالي 7000 مجاهد وفرض الحصار عليها،وفي 8أفريل من نفس السنة انضم الشيخ الحداد رئيس الطريقة الرحمانية بصدوق التي كان لها فروعا في عدة جهات من الوطن ، والتي تمكنت من تعبئة حوالي 120000 مجاهد عن طريق الجهاد المقدس الذي دعا إليه الشيخ الحداد ،بينما تمكن الشيخ المقراني من تجنيد حوالي 25 ألف فارس من قبائل برج بوعريرج،وو سور الغزلان وبوسعادة والعذراوة،فازدادت بذلك الثورة قوة وانتشارا،حيث استهدفت مراكز العدو من زكارو مليانة غربا إلى جيجل والقل شرقا وإلى الحصنة والمسيلة وسور الغزلان و تقرت وباتنة وبسكرة،وعين صالح جنوبا،إضافة إلى الحصار الذي ضربه المقراني والرحمانيين على الفرنسيين بمنطقة القبائل(البويرة،بجاية ،ودلس،تيزي وزو،ذراع الميزان، الأخضرية).

واصل الشيخ المقراني وأخوه بومرزاق، وسي عزيز ابن الحداد،والرحمانيين خوضهم المعارك الضارية ضد العدو باستبسال منقطع النظير،ومحققين انتصارات كبيرة حتى سقط المقراني شهيدا في معركة وادي سوفلات بالقرب من عين بسام يوم 5 ماي 1871 .

2.2.تراجع الثورة ونهايتها:

بعد استشهاد المقراني خلفه في قيادة الثورة أخوه أحمد بومزراق وشارك مع سي عزيز في شن الهجمات ضد المحتل لاسيما في مناطق البابور والحضنة ووادي الصومام وونوغة ، والبيبان ، داعيا الثوار إلى ضرورة الحفاظ على وحدة الصفوف ومواصلة الكفاح باستماتة،إلا ان استسلام سي عزيزيوم 30 جوان 1871 بجبال جرجرة،كما سقط أخوه سي امحمد أسيرا يوم 2جويلية1871،ولما علم الشيخ الحداد بمصير ابنيه سلم نفسه للسلطات الاستعمارية يوم 13 جويلية من نفس السنة،فأدى ذلك إلى استسلام الكثير من القبائل والرجال ومن ثمة اثر سلبا على معنويات بومرزاق الذي حاول جمع الشمل من جديد لكنه لم ينجح في تحقيق ذلك خاصة بعد انهزامه في معركة بالقرب من قلعة بني حماد 8 أكتوبر 1871،وتشديد الحصار عليه من قبل القوات الفرنسية،فاضطرته تلك الظروف إلى الاتجاه نحو الصحراء،لكن الفرنسيين اكتشفوا أمره والقوا عليه القبض بالرويسات(نواحي ورقلة) يوم 20 جانفي 1872 ،وحكم عليه بالنفي إلى جزيرة كاليدونيا وبذلك انتهت ثورة المقرانيين التي خلقت مصاعب كثيرة للمحتل الفرنسي و زعزعت وجوده رغم قصر مدتها .

3.نتائج الثورة: يمكن أن نلخصها في النقاط التالية:

-استشهاد حوالي 60 الف جزائري،و إعدام حوالي 6000 شخص

-كشفت الثورة عن فضاعة ردود فعل المحتل ازاء الجزائريين كالقتل الجماعي، و تدميرو حرق القرى و المداشروسجن ألاف الجزائريين و على رأسهم الشيخ الحداد الذي زج بسجن الكدية بقسنطينة سنة 1873،وتوفي بعد عشرة أيام فقط قضاها في زنزانته،إضافة إلى التهجير القسري،منهم حوالي 500 جزائري تم نفيهم إلى كاليدونيا الجديدة،و على رأسهم بومزراق المقراني و ابني الحداد سي عزيزسي محمد

-الاستيلاء على أملاك عائلتي المقراني و الحداد و المساعدين لهم في الثورة

-مصادرة أكثر من 500000 هكتار من أراضي القبائل الثائرة و منحها للمستوطنين الجدد لاسيما مهاجري الألزاس و اللورين الفارين كمن الخرب الفرنسية البروسية، و تجريد القبائل من جميع أسلحتها(بنادق،مسدسات، سيوف...)

-فرض غرامات مالية باهظة على السكان الذين شاركوا في الثورة و آخرون تعاطفوا معها أو قدموا مساعدات للثواربطرقة أو بأخرى و قد قدرمجموع هذه الغرامات بحوالي 36.5 مليون فرنك استمر دفعها لغاية سنة 1890

-إصدارقانون الأهالي 1871بهدف إرهاب الجزائريين و تثبيط عزائمهم و من ثمة قتل روح المقاومة فيهم.